مدلولات الهلال

(في الأعلام والرايات والشعارات العربية والإسلامية)

كان الهلال Crescent في الحضارات القديمة يمثّل الربّة "ديانا Diana" إلهة القمر والحامية لبيزنطة[1]، وبقي شعاراً للقسطنطينية[2] وهي اليوم (مدينة استنبول Istanbul في تركية) وضُربت صورته على نقودها وذلك قبل نشوء الدولة العثمانية، ثم أضيف إلى العلم التركي الأحمر بعد أن فتح الأتراك تلك المدينة عام ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م.

وصار الهلال بعد ذلك رمزاً للإسلام، وجعلته الدولة الفاطمية على الرمح، ثم اتخذته عديد من الدول الإسلامية في أعلامها وفوق قباب مساجدها ومنابرها ومحاريبها وجواسق مآذنها، وأحياناً فوق قباب أضرحتها.

ويرمز الهلال في الفكر الأدبي إلى جمالية الحياة والحلم، وانتقل من غرب آسية إلى الحضارة الإغريقية وأصبح رمزاً لاقتران "ڤينوس" بالقمر، كما تغنّى به شعراء العرب في قصائد الغزل.

مدلولات الهلال من الناحية الدينية: الهلال هو غُرَّة القمر إلى سبع ليال من الشهر، وهو أيضاً القمر أواخر الشهر، من ليلة السادس والعشرين منه إلى آخره، وقد ورد في القرآن الكريم لفظ الأهلّة جمع (هلال) في قوله تعالى: {يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحجّ}[3]، فالهلال يبدو ضعيفاً في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله، وهكذا ليعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم كالصيام والحجّ خاصة، ثم مواقيت الزكاة والكفّارات وما سوى ذلك مما عنته الآية الكريمة.

مدلولات الهلال من الناحية البيئيّة والمعيشيّة: يعتُبر القمر صديقاً للبدوي في بيئته الصحراوية القاسية، فهو ينير له عتمة الليل فيكون له معيناً لسريانه متنقلاً من مكان إلى مكان، إضافة إلى أنه يصبح بمنأى من الغزوات التي تحدث عادة في الليالي الكالحة السواد، أمّا الشمس فلها كراهيتها الخاصة عند البدو فهي تحرق الكلأ وتجفف الرطوبة وتقتل الحياة في الصحراء.

ويتّخذ المسلمون في العصر الحديث الهلالَ شعاراً لهم، فتظهر صورته في أعلام بعض الدول العربية والإسلامية (كتونس، والجزائر، وموريتانية، وعلم الجامعة العربية، وإيران، وجزر المالديف، وتركية، والباكستان، وأذربيجان، وسنغافورة، وماليزية، وتركمانستان، وأوزبكستان، وبروناي). ويُتّخذ في شعارات

(الباكستان، وبروناي، وتركية، وجزر المالديف، وماليزية). كما تعتمده المؤسّسات الطبية العربية والإسلامية شعاراً لها، كالهلال الأحمر السوري، والهلال الأحمر الفلسطيني، والهلال الأحمر التركي، بديلاً عن الصليب الأحمر السويسري الذي شاع في دول العالم غير الإسلامية عام ١٨٦٤م، ويُعتبر العثمانيون أول من اتّخذه شعاراً لمؤسّسات الخدمات الصحية والطبيّة ورفعوه لأول مرة عام ١٨٧٦م أثناء حربهم مع الصرب، ثم رُفع في مصر بعد ٣٥ عاماً من التاريخ المذكور.

وهناك رأي آخر يقول بأن هلال الأتراك العثمانيين أضيف عام ١٢٥٠هـ، وانه أُخذ من رمز الإله عند الآشوريين Assyrians في القرن التاسع قبل الميلاد، ثم اعتمد رمزاً إسلامياً بعد احتلال الأتراك للدول العربية.

ولجرجي زيدان في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) رأي يقول: إن المؤرخين اختلفوا في أصل الهلال، بين أن يكون الأتراك اقتبسوه من الروم بعد فتح القسطنطينية، أو أنهم جاءوا به من بلادهم من تركستان.

أقول: أتّفق مع ما ذكره الشيخ طه الولي في كتابه (المساجد في الإسلام) حول تاريخ الهلال عند المسلمين حين قال: "قَلَّ أن نجد قبة في مسجد لا يعلوها هلال في قمّتها. وربما ظن بعض الناس أن هذه الظاهرة بدأت مع العهد العثماني، الواقع أن وضع الهلال فوق القبة قد سبق العهد العثماني بسنين طويلة، فقد ذكر ابن تغري بردي في (حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور) أنه: في يوم الأحد تاسع عشرين [ذي القعدة سنة ٨٥٨ هـ] رسم السلطان للمهندسين بكشف مئذنة السلطان [المملوكي] حسن القِبْلِيّة لِمَا قيل من إنها أشرفت على السقوط، تطلَّع الجميع، فلم يجدوا بها شيئاً مما قيل، بل من كثرة الرمي عليها بالمكاحل[٤] في أيام الحروب تخرّق بعض رصاص القبة واعوجَّ هلالها، فأخرج الهلال وبقيت القبة بدونه...ولها إلى هذه السنة [يعني ٨٥٨ هـ] من حين ابتدئ في عملها مائة سنة، وكان الشروع فيها سنة ٧٥٨ هـ، وقُتل واقفها سنة ٧٦٢ هـ، فيكون الذي وضع الهلال فوق القبة المذكورة السلطان حسن بن السلطان [المملوكي] الملك الناصر محمد بن قلاوون".

ويتابع الولي القول: "عندما يتحدّث المؤرخون عن الهلال، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أن هذا الكوكب أصبح شعاراً إسلامياً عن طريق الدولة العثمانية التي رسمته على علمها الرسمي بعد تأسيسها على يد عثمان بن أرطغرول الجدّ الأعلى لسلاطين آل عثمان. وربما كان هذا صحيحاً ولكن في حدود معيّنة، ذلك أن الهلال عُرف منذ عهود قديمة سبقت ظهور العثمانيين على مسرح الحياة الدولية في

أواخر القرن السابع الهجري. وسبب اعتناء الأمم باتخاذ الهلال شعاراً لها، هو أنه يمثّل السموّ والعلاء لذلك فإننا نجد دولاً كثيرة تتّخذ الكواكب والشمس بالإضافة إلى الهلال شعارات قومية لها لما توحيه من معاني الرِفعة والاستمرار والخلود. أمّا بالنسبة للمسلمين بالذات فإن الهلال عُرف عندهم حتى في أيام النبي محمد ﷺ.

فلقد جاء في كتاب (التراتيب الإدارية) للسيد عبد الحيّ الكتاني]الفاسي[قوله: تُرجم في (الإصابة) لسعد بن مالك الأزدي، فنقل عن ابن يونس، وقد وَفَد على النبي وعقد له راية على قومه، سوداءَ وفيها هلالٌ أبيض. كما أنّ المسلمين نقشوا رسم الهلال على نقودهم في أيام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد نقل الأستاذ عارف العارف في كتابه (المُفَصّل في تاريخ القدس) عن مجلة (الراعي الصالح) قولها: .. وضرب المسلمون في بيت المقدس، غداة الفتح مسكوكات من النحاس نقشوا على وجهها (محمد رسول الله) ورسم سيف، وعلى الوجه الآخر (إيلياء فلسطين)[٥] وحرف (م) والهلال".

ثم يتابع، والكلام للولي: "ويقول المؤرّخ التركي جودت باشا في تاريخه: في دولة الخلفاء، وضعوا على رأس الألوية والسناجق علماً في صورة الهلال من النحاس المطلي وعلامة أخرى شبيهة بدائرة الشمس مدوّرة مشقوقة الوسط ولمّا تغلّب بعض الأمراء والسلاطين على الخلفاء وتحكّموا، استنكفوا من استعمال تلك الألوية ووضعوا على ألويتهم وسناجقهم كرة مذهّبة تشبه ملكة المغْزل وأقاموا على الألوية الكبيرة صفائح مذهّبة منقوشة بالأشعار وزيّنوها بألوان سوداء وميناء منقوشة. وهذه الألوية والرايات ذات الهلال الأسود والأخضر كانت في القديم مخصوصة بالخلفاء، ثم انتقلت إلى مشايخ الطرق الصوفية وإلى الجوامع والتكايا، وكانت تنشر أمام جنائز الأكابر وترفع في أيام عاشوراء وما ماثلها من الأيام المشهورة". إلى هنا وينتهي كلام الشيخ طه الولي.

وعرفت الدول الإسلامية الهلال في ألويتها، كما عرفته الدولة البيزنطية وكان من شعاراتها القومية، ولم يجد العثمانيون حرجاً في اتخاذه، ومن المعروف أن السلطان العثماني (محمد الفاتح) عندما استولى على مدينة القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م وجد البيزنطيين يتّخذون من الهلال شعاراً لهم، فنسج على منوالهم واعتمده شعاراً لدولته الناشئة، فأمر بأن يُجعل في العلم التركي إلى جانب بعض الآيات القرآنية التي كانت تزيّنه، وأصبح الهلال شعاراً للدولة العثمانية منذ ذلك الحين.

غير أن بعض المؤرخين تخبّطوا في تحديد زمن اتّخاذ الهلال في الأعلام العثمانية، وكذلك رسم "السفينة" التي كانت منذ عهد السلاجقة واستمرّت من عهد السلطان عثمان الأول (جلس ٦٩٩ هـ وتوفي ٧٢٦ هـ) إلى أيام السلطان أورخان

(جلس ٧٢٦ هـ وتوفي ٧٦١ هـ) حين استبدلها بالهلال الأبيض كتعبير على استقلالية الأعلام العثمانية عن السلجوقية.

وهناك قصة تحكي ان أصل الهلال يعود إلى (فيلبس) والد الاسكندر الكبير المقدوني، فعندما هاجم بعسكره مدينة بيزنطة [استنبول] في بعض الليالي دافع أهلها وطردوه عن البلد، وصادف ذلك وصادف ذلك وقت السحر، فتفاءلوا به واتخذوا رسم الهلال في علمهم تذكيراً للحادثة، وورث ذلك منهم القياصرة ثم العثمانية لما غلبوا عليها، ثم حدث ذلك في بلاد قازان.

وفي رواية ثانية للفريق أول محمود شوكت في كتابه (التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية) أن السلطان العثماني محمد الفاتح (جلس ٨٤٤ هـ وتوفي ٨٨٦ هـ) لمّا قام بحصار القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م ونجح في فتح ثغرة في أسوار قلعتها، شاهدت قواته من خلالها البيزنطيين المدافعين عن المدينة، كما شاهدت منها الهلال في كبد السماء وهو يرسل ضوءه مبدّداً دياجير الظلام، فتفاءل العثمانيون به، واعتبروه إيذاناً بسقوط المدينة بين أيديهم، وعندما نجحوا في الاستيلاء عليها، رأوا من الواجب عليهم اتخاذه شعاراً في أعلامهم.

وتقول أسطورة أخرى يتناقل الأتراك حول الهلال وهي أن عثمان بن أرطغرول، المؤسّس الأول للدولة العثمانية خاض ذات يوم معركة ضارية مع الكفّار من التتار حتى استحال ميدان المعركة إلى بحيرة من الدم الأحمر، فلمّا سجى الليل وأرخى سدوله حاجزاً بين المتحاربين انعكس خيال الهلال على صفحة الدم المراق، فلما رأى عثمان ذلك المنظر، استحسنه وأمر بأن يُجعل لواءه أحمر وفي وسطه الهلال استئناساً بذلك المشهد المثير، ومن ذلك الحين أصبح علم الدولة العثمانية كما وضعه عثمان المذكور.

ويذهب البعض إلى أن الهلال كان معروفاً منذ نشوء الدولة العثمانية، أخذوه عن الفرس، وعن هؤلاء أخذه العبّاسيون الذين كانوا يرفعونه من النحاس المذهّب على سواري أعلامهم السوداء، فلما انتشر النفوذ التركي في الدولة العبّاسية أخذوه عنهم وتبنّوه، **وهذا غلط** لأن الهلال كان مُتّخذاً في الجاهلية وصدر الإسلام ولم يكن العبّاسيون أول من اتّخذه.

وعندما ألغى مصطفى كمال باشا (أتاتورك) الخلافة الإسلامية أبقى على العلم الأحمر والهلال والنجمة فيه تخليداً للمعارك التي خاضها الأتراك طوال ستة قرون، ثم أصبح الهلال رمزاً للحضارة الإسلامية، فاتخذته بعض الدول العربية في أعلامها، وكان العلم المصري القديم مؤلفاً من هلال وثلاث نجوم خماسية بيضاء، ولا تزال أعلام الجزائر وموريتانية وتونس تحمل صورة الهلال والنجمة إلى أيامنا.

الهوامش

(١) **بيزنطة** Byzantium: كانت مستعمرة إغريقية أنشئت عام ٦٦٠ ق م، وبقيت مدينة حرّة في الزمنين الهيليني والروماني على الرغم من تعرّضها للهجمات العديدة، ثم أعاد الامبراطور الروماني قسطنطين الأول بناءها لتصبح عاصمة الامبراطورية الرومانية وسمّاها (القسطنطينية) نسبة لاسمه.

(٢) **القسطنطينية** Constantinople: مدينة قديمة هي اليوم جزء من استنبول، تقوم على القرن الذهبي في القسم الأوروبي لمضيق البوسفور، وبقيت عاصمة للامبراطورية البيزنطية بعد انهيار الامبراطورية الرومانية في الغرب حتى احتلها الأتراك عام ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م وبقيت عاصمة للدولة العثمانية حتى عام ١٩٢٣م حين أصبحت مدينة أنقرة هي العاصمة بدلاً عنها.

(٣) **سورة البقرة**، الآية ١٨٩

(٤) **المكاحل**: مفردها مكحلة وهي في الأصل وعاء لوضع الكحل للعين، لكنها أطلقت في العصور الوسطى على سلاح يشبه (المدفع)، حيث يوضع فيه كحل البارود [مسحوق البارود سمّي بذلك لسواده] مع فتيل صغير لينفجر ويقذف القذيفة على الهدف. وما تزال البندقية المعروفة تسمى عند أهل المغرب بالمكحلة.

(٥) **إلياء؛ إيلياء فلسطين**: الاسم القديم لمدينة القدس، مأخوذ عن اسمها الروماني: كولونيا آيليا كابيتولينا.

مصادر البحث

- أسماء الأشهر والعدد والأيّام: د. أنيس فريحة ١٢٠، ١٢٢ جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٨٨.
- تاريخ التمدّن الإسلامي: جرجي زيدان ١٨٢/١ دار مكتبة الحياة، بيروت (بلا تاريخ).
- التذكرة التيمورية: أحمد تيمور باشا ٢١٤، ٢٧١ لجنة نشر المؤلفات التيمورية ط١ مصر ١٩٥٣.
- معجم الأعداد: جان م. صدقة ١١٧، ١٢٢، ١٣٧ مكتبة لبنان، بيروت ١٩٩٤.
- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي: محمد أحمد دهمان، ١٤٣ دار الفكر، دمشق ١٩٩٠.
- معجم الحضارات السامية: هنري س.عبّودي ١٨٥ جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٩١
- الحوليات الأثرية العربية السورية: المديرية العامة للآثار والمتاحف، بحث (معاني النجوم الزخرفية)، د. عفيف البهنسي، المجلد ٣١، ١٩٨١ ص ١٧٠.
- الموسوعة العربية العالمية ١١٠/٢٦ مؤسسة الموسوعة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.
- المساجد في الإسلام: الشيخ طه الولي ٢٧٩ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٨.
- التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية: الفريق أول محمود شوكت ٨٢ ترجمه عن التركية د. يوسف نعيسة ود. محمود عامر، دار طلاس، دمشق ١٩٨٨.
- علم مصر من قديم الزمان حتى الآن: د. ناصر الأنصاري ٤٠ مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧.

من الدول التي تعتمد الهلال في أعلامها

تركية

تونس

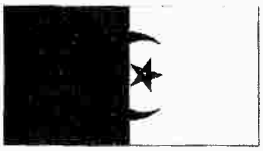

الجزائر

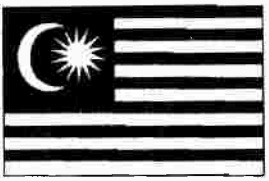

ماليزية

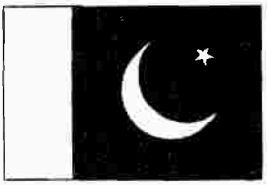

الباكستان

موريتانية

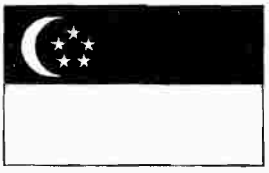

سنغافورة

جزر المالديف

أزربيجان

جزر القمر

براوناي

تركمانستان